خطبة "حجة الوداع" والمقصد الجمالي من منظور نظرية القراءة والتلقي

أ.د/آمال لواتي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة

ملخص

حدَّدت هذه الدراسة أسئلةً نقديةً حول إمكانية استثمار بعض مفاهيم وآليات نظرية القراءة والتلقي لقراءة نص خطبة حَجة الوداع، لما لها من حضورٍ ديني وبلاغي وإنساني، وتندرج ضمن إشكالية مدى خضوع النصوص النبوية الشريفة لآليات تحليل الخطاب المرتبطة بالنظريات الأدبية والمناهج النقدية المعاصرة، وذلك لبيان مبادئ ومقاصد وأبعاد التلقي، التي تأكَّدت من خلال قصدية الخطاب النبوي الشريف، بتأويله وإعادة إنتاج معناه الجمالي، وقد أكَّد هذا الخطاب بفرادته الأسلوبية على الإقناع والتأثير، وببعده الاستشرافي على الديمومة والانفتاح، وتمحورت الدراسة حول العناصر الآتية:

أولاً – نص خطبة حَجة الوداع.

ثانياً — سياق الخطبة وإحالات التلقي.

ثالثاً – بلاغة الخطبة ومقام التلقي.

رابعاً – مقصدية الخطبة وأفق التلقي.

خامساً – الخطبة "نص مفتوح" على أبعاد التلقي والقراءة.

الكلمات المفتاحية: خطبة الوداع، القراءة، التلقي، الفرادة الأسلوبية، المقصد الجمالي.

Abstract

Learning other language and its impact on realizing the excellence of Arabic

Language is the most important component of any civilization, and our Arabic language, which many previous civilizations have advanced in, this language is distinguished by unique qualities and characteristics that qualified it to be the tongue of the eternal heavenly message .However, only one who learns foreign languages of other civilizations will know the distinction and superiority of Arabic over other languages, so he practically stands above the highness of Arabic, its honor and its value, its uniqueness in its field with unparalleled individual and synthetic features .So we will try, Allah willing, to present applied models on the impact of learning foreign languages and its impact on realizing the distinction of Arabic from the other languages of the worlds.

مقدمة:

تمثل البلاغة النبوية أعلى مستويات البيان والتبليغ والتواصل بعد الإعجاز القرآني، ووسيلة لنشر عقيدة التوحيد ورسالة الإسلام. وقد أوتي الرسول ﷺ من جوامع الكلم وبدائع الحكم، ولم يكن انفتاح الخطاب النبوي على الدراسات الشرعية واللغوية والبلاغية فحسب؛ وإنَّما على الدراسات الأدبية والنقدية، بما تشتمل عليه من مقاربات منهجية مفتوحة على تنوع القراءات، على الرغم من أنَّ النص النبوي مثل النص القرآني، يختلف عن غيره من النصوص بخصوصيته النبوية وفرادته البلاغية، ممَّا جعله خارج نسق التصنيف الأجناسيّ من جهة، وخارج الإطار المنهجي والمصطلحي المقيَّد بمفاهيم وآليات إجرائية محددة من جهة أخرى، وهذا يجعل الدارس الموضوعي يتّبع سياسة الانتقاء الحضاري، التي تؤسِّس للمرجعيات والأصول، وتراعي السياقات النصية الدينية والتاريخية والحضارية، وتنبِّه للمحاذير والإسقاطات المتعسِّفة والقسرية. ومن هذا المنطلق الفكري والنقدي التفتت الدراسة إلى إمكانية استثمار بعض مفاهيم وآليات ومصطلحات نظرية القراءة والتلقي[1]، لإعادة المعنى الجمالي المرتبط بتحقيق مقاصد التلقي التي يُستند إليها في قراءة النصوص، وذلك لتأكيد العلاقة الرابطة بين النص ومنتجه ومتلقيه، وما تتسم به من عمق بعد تطور الدراسات في مجال الخطاب اللغوي.

أولا: نص خطبة حَجة الوداع[2]:

قال ﷺ: «**الحمدُ لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هاديَ له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن مُحَمَّدا عبده ورسوله. أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير. أما بعد:**

أيها الناس، اسمعوا مني أبيّن لكم، فإني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا. أيها الناس، إنَّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربَّكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا هل بلّغت؟ اللهم أشهد.

---

[1] ينظر: هانز روبرت ياوس، جمالية التلقي من أجل تأويل جديد للنص الأدبي، ترجمة رشيد بنحدو، القاهرة، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، 2004، ص 101 وما بعدها. وناظم عودة، الأصول المعرفية لنظرية التلقي، عمّان، دار الشروق، 1997، ص 138 وما بعدها. وبشرى موسى صالح، نظرية التلقي أصول وتطبيقات، ط 1، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 2001، ص 31 ـ 52.

[2] ودت الخطبة في عدة متون مختلفة، في التاريخ والتفسير والأدب والنقد، مع اختلاف في نصها. ومنها: ابن هشام، السيرة، تحقيق السقا الأبياري شلبي، دمشق، ط. البابي الحلبي، 1375 هـ / 1955، ج 4، ص 603؛ الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ط 5، تونس، دار سحنون للنشر والتوزيع، 1411 هـ / 1990 م، ج 2، ص 31 .

فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها. وإنَّ ربا الجاهلية موضوع، وإنَّ أوّل ربا أبدأ به ربا عمّي العباس بن عبد المطلب. وإنَّ دماء الجاهلية موضوعة، وإنَّ أوَّل دمٍ أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. وإنَّ مآثر الجاهلية موضوعة، غير السَّدانة والسِّقاية[1]، والعَمْد قَوَد[2]، وشبه العمْد ما قُتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد، فهو من أهل الجاهلية.

أيُّها الناس، إنَّ الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه، ولكنَّه قد رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك ممَّا تَحقِرون من أعمالكم.

أيُّها الناس، إنَّ النسيء[3] زيادةٌ في الكفر، يُضل به الذين كفروا، يُحلّونه عامًا ويُحرّمونه عامًا ليواطِئُوا عِدّة ما حرّم الله، فيحلُّوا ما حرم الله. إنَّ الزمان قد استدار كهيئته يومَ خلَق اللهُ السمواتِ والأرض. وإنَّ عِدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلَق السماواتِ والأرضَ، منها أربعةٌ حرُمٌ: ثلاثةٌ حرُمٍ متواليات، وواحدٌ فردٌ: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان. ألا هل بلغت؟ اللهمّ أشهد!

أيُّها الناس، إنَّ لِنسائكم عليكم حقًّا، ولكنْ عليهن حقٌّ، لكن عليهن ألاّ يوطئن فرشَكم غيركم، ولا يُدْخِلْن أحدًا تكرهُونه بيوتَكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة مُبيّنة، فإن فعلْن فإن الله قد أذن لكم أن تَعضُلوهن[4] وتَهجروهن في المضاجع، وتَضربوهن ضربا غير مُبرّح، فإن انتهيْن وأطعْنكم، فعليْكُم رِزقُهن وكِسْوَتُهن بالمعروف. وإنما النساء عِندَكم عَوَان[5] لا يَمْلِكْن لأنْفُسِهن شيئًا، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فُروجَهنّ بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا. ألا هل بلّغت؟ اللهمّ أشهد!

أيُّها الناس، إنَّما المؤمنون إخوة، ولا يحِلّ لامرئٍ مسلم مالُ أخيه إلاّ عن طيب نفس منه. ألا هل بلّغت؟ اللهم أشهد!

فلا تَرجِعُنّ بعدي كفارا يضرب بعضُكم رِقابَ بعضٍ، فإني قد تركتُ فيكم ما إن أخذتم به لن تَضِلُّوا بعدي أبدا، كتاب الله وسنة نبيّه. ألا هل بلّغت؟ اللهم أشهد!

---

[1] السدانة والسقاية: خدمة الكعبة المشرفة وسقاية من يحج إليها.

[2] قَوَد: قتل القاتل مقابل قتيله.

[3] النسيء: تأخير حرمة أحد الشهور إلى شهر آخر غيره، مثل تأخير حرمة شهر محرم إلى شهر صفر ليستباح القتال فيه كما كان يُفعل في عصر الجاهلية.

[4] تعضِلوهن: تسيؤون إليهن وتضيقون عليهن بغرض دفعهن إلى طلب الطلاق.

[5] عَوَان: مفردها عانية، وهي الأسيرة.

أيُّها الناس، إنَّ ربّكم واحدٌ، وإنَّ أباكم واحدٌ، كلكم لآدم وآدم من تراب. أكرمُكم عند الله أتقاكم، إن الله عليمٌ خبيرٌ. وليس لعربيٍّ فضلٌ على عجميٍّ إلا بالتقوى. ألا هل بلّغت؟ اللهم أشهد!
قالوا: نعم. قال: فليُبلّغ الشاهدُ الغائبَ.

أيُّها الناس، إنَّ الله قد قسَم لكل وارث نصيبَه من الميراث، فلا تجوز لوارث وصيةٌ، ولا تجوز وصيةٌ في أكثر من الثلث، والولد للفراش[1]، وللعاهِرِ الحَجْرُ، من ادّعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناس أجمعين، لا يُقبل منه صرفٌ[2] ولا عدلٌ[3]. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

ثانيا: سياق الخطبة وإحالات التلقي:

تمثل خطب الرسول ﷺ مع أقواله وأفعاله المصدر الثاني في الشريعة الإسلامية بعد كتاب الله الكريم، وكان أشهرها ما ألقاه في حجة الوداع بعد أن شعر بدنوّ أجله. وقد تفرَّدت بما اشتملت عليه من مقاصد دينية وإنسانية وخصائص أسلوبية وجمالية[4]، حاولنا من خلالها توضيح علاقتها بمبادئ تحيل إلى التلقي التي تمثلت فيما يأتي.

1 – **فن الإلقاء** في الخطابة الذي قلَّ تداوله في عصرنا الحالي، وهو فن صياغة الكلمة صياغة آسرة تؤثر في المتلقي عاطفة وفكرا، وقلبا وعقلا، لأنَّ الخطابة هي من صميم مصطلح الخطاب الذي يعني توجيه الكلام لإفادة السامع بمعناه. وهي فن مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالته، وتقوم على أربعة ركائز هي: (المشافهة، الجمهور، الإقناع، الاستمالة)، ويبدعها الخطيب بغية إلقائها على جمهور المتلقين وغايته في ذلك التأثير فيهم لإرشادهم إلى الحقائق[5].

---

[1] للفراش: أي لصاحب الفراش، أي لمن نام مع المرأة، سواء كان زوجها أو غيره.

[2] صرْف: توبة.

[3] عدْل: فدية.

[4] ينظر: سالم المعوش، القواعد المعرفية الإسلامية في أدب صدر الإسلام، ط 1، بيروت، دار النهضة العربية، 1422 هـ / 2001 م، ص 294 . 299. وكذلك: صابر عبد الدائم، الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق، ط 2، القاهرة، دار الشروق، 1422 هـ / 2002 ، ص 251 . 260 ؛ وكذلك: مصطفى الشكعة، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، القاهرة، المكتبة الأنجلو مصرية، 1968، ص 218 . 219.

[5] ينظر: أحمد محمّد الحوفي، فن الخطابة، ط 5، القاهرة، دار نهضة مصر، 2007، ص 5 – 10. وعلي محفوظ، فن الخطابة وإعداد الخطيب، القاهرة، دار الاعتصام، د. تا، ص 14 – 15. وعبد العاطي محمّد شلبي، وعبد العاطي عبد المقصود، الخطابة الإسلامية، الاسكندرية (مصر)، المكتب الجامعي الحديث، 2006، ص 17 وما بعدها.

2 – **تاريخية النص** من خلال توثيق الخطبة زمانيا ومكانيا (**كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا**). للتأكيد على أهمية الزمن، وأنَّ عدد الشهور على مدار السنة اثنا عشر شهرا، فيها أربعة حرم، نهي عن الظلم فيها، وفي ذلك تنبيه المتلقي إلى بداية التاريخ الصحيح واستقرار الترتيب الزمني وعلاقة ذلك بتشكيل وعيه بقيمة الزمان والمكان وأهميتهما في تنظيم الحياة.

3 – **بنائية النص وإنتاج المعنى:** قدمت خطبة الوداع نموذجا بنائيا تحدَّدت فيه شروط الإلقاء والعرض المنطقي والأسلوبي لإنتاج المعنى، ودرج عليه الخطباء بعد ذلك. وتمثَّلت علاقة البناء بالمحتوى الرسالي الذي أنتجته الخطبة فيما يأتي:

– **إبلاغية المقدمة:** هي حسن الافتتاح للتمهيد لما يرد بعدها، وإعداد السامعين المتلقين للإصغاء بما يناسب عقولهم[1]. ومن هذا المبدأ المرتبط بالتلقي بدأ الرسول ﷺ خطبته بالحمد والاستغفار والتوبة إلى الله، والاستعاذة به ممَّا تقترفه النفس من شرور ومن سيئات تشوب سلوك الإنسان. وفي ذلك تأكيد على وحدانية الله وعدم الشرك به، وعلى نبوة مُحَمَّد (ﷺ): (**وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن مُحَمَّدا عبده ورسوله**). وأهمية الهداية للإنسان: (**من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هاديَ له**). وتبيّنت علاقة المقدمة بالمتلقي من خلال توصيف مُكوّنات الشخصية الإسلامية المرتبطة بمحددات علاقة المسلم بربه (**الحمد، الاستعانة، الاستغفار، التوبة، الاستعاذة ...**)، وقد وردت هذه المحددات في صيغة الجمع المتكلم، وذلك للدلالة على العلاقة التشاركية بين النبي (ﷺ) والمتلقين، والتعبير عن الوجدان الإسلامي المشترك (**نحمده ونستعينه، نستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا**). وقد اشتملت فاتحة الخطبة على جوهر التقوى والطاعة والخير، إذ ترتكز على قيم تسهمُ في عملية البناء النفسي والاجتماعي للفرد والمجتمع، وهذا هو الفهم الحقيقي للحياة شؤونا ومعايشة ومبادئ. وفي هذا الاستفتاح عبَّرت دلالات العبارات عن عدم إشعار النَّبي (ﷺ) المخاطَبين بأنَّه أعلى شأنا منهم، وإنَّما هو في مستوى بشريَّتهم.

– **عرض الذخيرة والسجل:** جاء البناء محكما بعرض الفكرة الأساسية وأجزائها الفرعية للموضوع الأساسي (التشريع الإسلامي والمبادئ الإنسانية). وكانت ذخيرة وسِجلا للنص، وهذا ما تعتد به نظرية القراءة والتلقي[2]، وتعدُّه سندا تاريخيا (نفي العادات والأعراف الجاهلية) (تثبيت الأحكام والتشريعات)،

[1] أحمد مُحَمَّد الحوفي، المرجع السابق، ص 117.

[2] روبرت هولب، نظرية التلقي، مقدمة نقدية، ترجمة عز الدين إسماعيل، القاهرة، المكتبة الأكاديمية، 2000، ص 139 . 140. ومُحَمَّد إقبال عروي، مفاهيم هيكلية في نظرية التلقي، مجلة عالم الفكر، الكويت، ع 5، مج 37، يناير . مارس 2009، ص 53 . 54.

قدمها النَّبي (ﷺ) شواهد وأمثلة توجَّه بها إلى الناس (المتلقين) موضحا الالتزام بفحوى الخطاب مبرزا دور كلامه وأهمية دعوته، والذي يؤكد الحضور الدائم للرسول (ﷺ) من خلال خطبته حتى بعد وفاته، التي اشتملت على وصايا ثمينة مازالت منارات للاهتداء بها في مجاهل الطريق، جعلها أمانة لكل مسلم ومسؤولية الالتزام بتعاليمها فردا وجماعة وأمة إلى يوم الدين، بما تحمله من حكم وأحكام تنظم حياة المسلمين، منها[1]: إنهاء أعراف الجاهلية ومنها الربا والكسب الحرام، تحريم الدماء والاقتتال والأخذ بالثأر، والتأكيد على حقوق المرأة وأهمية مكانتها، وحاجتها إلى التكريم، والحث على المساواة بين الناس، وأن ميزان التفاضل بينهم هو تقوى الله، وإقامة نظام العدل في الأرض، وإنهاء العبث بالأنساب، وتعظيم شأن الأمانة؛ والحديث عن الميراث وأصحابه.

– **تداولية الخاتمة:** تتحدَّد أهمية الخاتمة بنجاح العرض الذي تتحقَّق فيه الوحدة الموضوعية من خلال ترتيب عناصر الموضوع ترتيبا محكما متناسقا يجذب عقول المتلقين ومشاعرهم؛ وبالتالي فالخاتمة هي أهم النقاط الاستراتيجية في الخطاب، من خلال الكلمات التي تبقى عالقة في أذهانهم[2]. ومن هذا المبدأ أُنهيت خطبة حَجة الوداع بتحية: (**السلام عليكم ورحمة الله وبركاته**) الحاملة لخطاب تلقي الإسلام والمؤكدة على تداولية تعاليمه التي جاءت لكل الإنسانية، لتنشر بينها الرحمة والمحبة والسلام.

4 – الفرادة الأسلوبية: وتمثلت في ضروب البلاغة من خلال وضوح العبارة، نقاء اللفظة، السهولة الممتنعة، قوة الصدق، توخّي الدقة، الالتزام بالسياق القرآني، التكرار للتثبت من إيصال الفكرة، والإيجاز لتكثيف المعنى والتعبير عن الفكرة بأقل ما يمكن من الكلام مراعاة لمقام التلقي وأحوال المتلقين.

5–ثنائية التأثير والإقناع: وهذه الثنائية هي مرتكز النص لتأكيد فعل التلقي بالتأثير والإقناع عن طريق مخاطبة العقول باستعمال القرائن المنطقية والواقعية، وتقديم البراهين والأدلة بالشواهد والأمثلة، ومخاطبة العواطف بتقديم الأنموذج النبوي للمتلقي (الإيمان الرحمة، المحبة، الصدق، وغيرها من الشمائل الرفيعة)، ليكون **أنموذجا للاقتداء والاهتداء،** وكان خطاب العقل والعاطفة من أهم ما يتواصل به المخاطب مع المتلقي.

ثالثا: بلاغة الخطبة ومقام التلقي:

---

[1] نايف معروف، الأدب الإسلامي في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ط 1، بيروت، دار النفائس، 1410 هـ / 1990 م، ص 40 وما بعدها. وفاروق حمادة، الوصية النبوية للأمة الإسلامية في حجة الوداع، ط 1، دمشق، دار القلم، 2001، ص 59 وما بعدها.

[2] أحمد محمّد الحوفي، المرجع السابق، 137.

يعدُّ البيان النَّبويّ الأنموذج الأعلى للبلاغة العربية بعد البيان القرآني الكريم، فهو قبس من أضواء البيان العربي، وقد صدق الحق سبحانه إذ يقول: {**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4)**}[1]. وقد وصف الجاحظ بيانه النبوي الشريف بأنَّه: "الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجلَّ عن الصنعة، ونُزّه عن التكلُّف ... واستعمل المبسوط في موضع البسط والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلاّ عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلاَّ بكلام قد حُفَّ بالعصمة وشُيِّد بالتأييد، ويُسِّر بالتوفيق. وهو الكلام الذي ألقى اللهُ عليه المحبة، وغشّاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلَّة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته"[2]. وفي هذا التوصيف تأكيد على علاقة البيان النبوي بخصائصه الأسلوبية والتداولية بمقام التلقي وأحوال المتلقين من حيث (الصنعة، التكلف، المبسوط، المقصور، الغريب، الوحشي، الهجين، السوقي، الحكمة، العصمة، التأييد، التوفيق، القبول، المهابة، الحلاوة، حسن الإفهام، حاجة السامع).

كما وصف مصطفى صادق الرافعي بلاغة المصطفى (ﷺ)، وصفا دقيقا سبر فيها أغوار أسرارها التعبيرية، لتأكيد ما بلغت إليه من رقي وكمال قائلا: "لقد رأينا هذه البلاغة النبوية العجيبة قائمة على أنَّ كل لفظ هو لفظ الحقيقة لا لفظ اللغة، فالعناية فيها بالحقائق، ثم الحقائق هي تختار ألفاظها اللغوية على منازلها، وبذلك يأتي الكلام كأنَّه نطق للحقيقة المعبر عنها، والكلمة الصادقة تنطق مرة واحدة، فصورتها اللغوية لا تكون إلاَّ صريحة منكشفة عن معناها المضيء كأنَّما ألقي فيها النور"[3]. وهذا المنظور البلاغي هو الذي ترتكز عليه نظرية القراءة والتلقي في تعميق جمالية النص واستيعاب مقاصده من خلال قدرته على الإبلاغ، وبذلك يحدث فعل الاستجابة من المتلقي وتأثيره عليه، وهذا هو فهم القدماء للبلاغة[4]، وهو يتوافق مع النظرية التي تستدعي الأسلوب باعتباره أساس الإبلاغ لأنَّه تجسيد لعزيمة المتكلم في أن يكسو السامع ثوب رسالته في محتواها من خلال صياغتها[5]. ومن هذا الفهم يمكن تتبع الألفاظ والتراكيب الدالة على التلقي في نص الخطبة حسب الآتي:

1 – الصّيغ الدالة على فعل التلقي:

---

[1] النجم: 1-4.

[2] البيان والتبيين، 2 / 17.

[3] مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، بيروت، دار الكتاب العربي، 142 هـ / 2003 م، 3 / 12.

[4] ينظر: ابن رشيق، العمدة، تحقيق مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد، ط 1، بيروت، دار الجيل، د. تا، 1 / 13.

[5] عبد السلام المسدي، الأسلوب والأسلوبية، تونس، الدار العربية للكتاب، 1977، ص 76.

أ – أفعال التلقي: أوصيكم / أحثكم / اسمعوا / أبين لكم / لا ألفاكم / تركتُ فيكم ، بلّغت، أشهد، وهي تحمل بعد التلقي: (**الوصايا / الحث / السماع / التبيين / التوضيح / اللقاء / التبليغ / الشهود / الأثر**). وكان **السماع** شرط البيان والتوضيح: (**اسمعوا مني ... أبين لكم ...**)، باعتبار أنَّ السماع هو أداة التلقي الأولى لفن الخطابة، ويؤدي إلى الإصغاء، وهو عملية تالية للسماع، وبعد تلقي الكلام سماعا يكون استعداد المتلقي لإصغائه؛ وبالتالي تقبله، لأنَّ السماع هو التلقي الشفوي الذي يقود أيضا إلى التأمل، وهو بعد نظر يتطلب إعمال الفكر والقلب ليتم الفهم والإفهام، وهو عماد الإدراك والاستجابة والتقبّل لدى المتلقي.

ب – الخطاب بصيغ الجمع المخاطب التي برزت بشكل لافت لأنَّها صيغة تستدعي مشاركة المتلقي المعاصر للخطبة والمتلقي عبر العصور، وهو متلق يخضع للأوامر والنواهي لتحقيق مبادئ الحق والعدل والخير، منها:

– صيغة الجمع المتكلم في المقدمة (نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله) لتحديد علاقة المتلقي المسلم بربه. وقد وردت في قالب المضارعية للتأكيد على ثبات تلك العلاقة، والإيحاء بتجدُّد شعور المؤمن واستمراره في كل زمان مكان.

– صيغة الإضافة إلى الجمع المخاطب: (كُم) دماؤكم، أموالكم، ربكم، يومكم، شهركم، بلدكم، أرضكم، أعمالكم، نسائكم، فرشكم، غيركم، بيوتكم، إذنكم، أباكم ...

– صيغة فعل الجمع المخاطب: أوصيكم، أحثكم، أكرمكم، أتقاكم ...

– صيغة أمر الجمع المخاطب: (اسمعوا، اتقوا، استوصوا ...)

– صيغة نهي الجمع المخاطب: (لا ترجعن بعدي كفارا، لن تضلوا بعده ...)

– صيغة فعل الجمع المخاطب مع الجمع المؤنث: للدلالة على العلاقة التكاملية بين الرجل والمرأة (**أن تعضلوهن، تهجروهن، تضربوهن، عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، أخذتموهن، استوصوا بهن ...**).

2 – أسرار التكرار وعلاقتها بالمتلقي:

إنَّ التَّكرار ظاهرة بارزة في الرصيد اللغوي والبلاغي العربي، بشتى ظواهره الأسلوبية، ونماذجه المشهورة موجودة في القرآن الكريم[1]. واستمد منه النص النبوي الشريف حكمة الزيادة في اللفظ باحتوائه على كثير من الأسرار واللطائف التي تكسب الكلام حسنا وجمالا، وتعين على إصابة الهدف وتحقيق الغرض المرتبط بخطاب التلقي، وهو يؤدي غرض الإشباع في المعنى والاتساع في اللفظ لتحقيق غايات (الحث، العظة، التأمل، التقرير، التخصيص، التوكيد، التعظيم، التشويق ...)[2]. واتَّضحت أسرار التَّكرار في نص الخطبة:

– **تكرر النداء "أيها" (8 مرات)**، ممَّا يكشف عن حرص المصطفى (ﷺ) على هداية الناس جميعا، وبين كل نداء ونداء يبث السراج المنير شعاعا من نور الحق، ليضيء به دروب النفوس التي أظلمت قرونا عديدة، ويظل النداء ساريا في ضمير الأجيال المؤمنة عبر القرون المتعاقبة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لما فيه من براعة استهلال لتنبيه المتلقي السامع. **واقترن تكرار النداء "بالناس"** في قوله: **"أيها الناس" (8 مرات)** لتنبيه العقول والقلوب، وإيقاظ الحواس الغافية، للتأكيد على أنَّ الإسلام دين البشرية جمعاء وقد قال تعالى: **{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون}**[3]. والمقصود بلفظ الناس المتلقين بمختلف أزمانهم وأمكنتهم وأجناسهم، ومخاطبتهم لا على أساس أنَّهم متفاوتون في حظ الإيمان بالإسلام وفي حظ المعرفة والخبرة به. ووردت إلى جانب ملفوظ "الناس": **عباد الله / المؤمنون / كفارا / مسلم / عربي / أعجمي / أخوة / أخيه / أباكم / آدم**، وهي تحيل إلى أنواع المتلقين للتأكيد على الأصل البشري الذي يبقى على المدى قائما على المساواة، وليس التمييز والتفضيل والتكريم إلا بالتقوى، وكان التأكيد على ذلك من خلال تَكرار ملفوظ "التقوى" **(3 مرات)**: **(أوصيكم عباد الله بتقوى الله، أكرمكم عند الله أتقاكم، اتقوا الله في النساء)**.

– **وتكرَّرت كلمة "النفس" (مرتين)**: **(عن طيب نفس)**، وهو خطاب شامل يحيل إلى متلق فطري مرتبط بالنفس البشرية التي تحتكم إلى الذهن والحس والتهذيب، و**(أنفسهن)** التي تحيل المتلقي إلى خصوصية التذكير والتأنيث تحضر فيه المرأة كمتلق مستقل له خصوصيته النفسية الاجتماعية والثقافية.

– **وتكرر اسم الإشارة "هذا" (5 مرات)**: **(كحرمة يومكم هذا في شهرهم هذا في بلدكم هذا)** لتنبيه الناس على حرمة الأماكن المقدسة، وتكرر في موضع آخر **(لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا...)** لتنبيه المخاطبين إلى اكتمال الرسالة وتهيئة نفوسهم إلى لقاء الرسول (ﷺ) ربَّه.

---

[1] ينظر: ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، شرح السيد أحمد صقر، ط 3، القاهرة، المكتبة العلمية، 1401 هـ / 1985 م، ص 232 . 233. وكذلك: محمود زغلول سلام، أثر القرآن في تطور النقد العربي، القاهرة، دار المعارف، 1968، ص 141 . 144.

[2] محمد السيد شيخون، أسرار التكرار في لغة القرآن، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، 1403 هـ / 1983 م، ص 52 . 64.

[3] سبأ، الآية 27.

– **وتكرَّرت عبارة "ألا هل بلغت؟ اللهم أشهد" (6 مرات)** ووردت في قالب الاستفهام المثير لانتباه المتلقي بإلقاء عبء المسؤولية على المسلمين، وإشهاد الله عليهم وهو خير الشاهدين، لتكون الحجة على المعاندين والمخالفين، ويكون دليلا على تبليغ الرسالة. ويأتي دعاء النبيّ ﷺ وطلب الشهادة من الله **(ألا هل بلغت؟ اللهم أشهد)** لإقامة الحجة على المخاطبين في كل زمان ومكان، ولفت نظرهم، باستفهام توكيدي، إلى تأصيل المعاني التي قصدها، وتعميق أصولها وجذورها بما يكفل لها البقاء والخلود في خواطر المؤمنين. كما أدَّى الدعاء أيضا غرضًا أسلوبيا وبعدًا إنسانيا استفسر من خلاله الرسول (ﷺ) عما إذا بلغ المتلقين المضمون دون لُبس أو تقصير، ودون أن ينتظر منهم إجابة ليبقى على صلة بهم، وهذا معرفة منه بما يناسب فن الخطابة[1]. وكان ترديد النَّبي (ﷺ) لهذا الدعاء أثر كبير في استمالة المتلقي وشد سماعه، وبخاصة المتلقي المسلم الذي ينجذب إلى الخطاب الديني.

– **وتكرر التأكيد بأداة "إنّ" (15 مرة): (إنَّ ربا الجاهلية موضوع، وإنَّ دماء الجاهلية موضوعة، إنَّ النسيء زيادة في الكفر، إنَّ أباكم واحد، وإنَّ ربكم واحد، ...)**. ويبين ذلك مدى أهمية الأمر المؤكد للمتلقي، وهو إقامة المجتمع الإسلامي على دعائم الحق والعدالة والمساواة والتآخي، ومن تأكيد الرفض لكل ما هو جاهلي، إلى تأكيد الحرص على تثبيت كل ما هو إسلامي.

– **كما تكرر أسلوب الشرط وجوابه (8 مرات)**، ليشير إلى منهج الإسلام في الثواب والعقاب، فالجزاء من جنس العمل، فلكل عمل صالح ثواب، ولكل عمل طالح عقاب، وكان إرشادهم إلى باب الرجاء والنجاة الذي صاغه في أسلوب الشرط والجواب **(فإنِّي قد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا: كتاب الله وسنتي)**. وفي ذلك إرشاد المتلقين المسلمين وغيرهم إلى أفق الرشاد والهداية.

3– التلوين البلاغي ومراعاة مقتضى حال المتلقي:

وهو أسلوب جمالي يندرج – في منظور التلقي– ضمن معرفة الرسول بأحوال الناس وطبقاتهم ومستوياتهم من أجل (**شد الانتباه، الاستمالة، الاستجابة، التّقبّل، التأثير، الإقناع، الإعجاب، الدهشة** ...) فهو كلام نبوي لا محاباة فيه ولا معاضلة، ومصدر الثقة والتصديق، لتثبيت المعاني المقصودة للإيمان والتقوى، **(القول مع الفعل)**، وهو خطاب له خصوصيته النبوية من خلال التلوين البلاغي الذي تم فيه مراعاة مقام التلقي وأحوال المتلقين، والتي تمثلت في:

– **تنويع الأساليب الخبرية والإنشائية** لها علاقة بخطاب التلقي، وذلك باستعمال أساليب خبرية طلبية بأدوات التوكيد (أنّ، إنّ)، وأساليب إنشائية من أمر ونهي واستفهام ونداء مثل: "اسمعوا قولي"، وهو

[1] مصطفى الشكعة، المرجع السابق، ص 220.

أسلوب إنشائي جاء في صيغة الأمر، والغرض منه لفت انتباه المتلقين وإصغاؤهم إليه من أجل إيصال الوصايا المحمدية التي شخَّصت الداء وأعطت الدواء الناجع للأمراض والعلل التي تنخر جسد البشرية في كل زمان ومكان. ويظل المصطفى ﷺ يعايش هذا الواقع الذي ينشد الحرية والعدالة إلى يومنا هذا. وكذا أسلوب النداء بتنوع تراتبه لتنبيههم إلى قيمة عقيدة الإسلام، فهو منارة التوحيد وآصرة الأخوة والمحبة الإنسانية.

– **اعتماد الإيجاز والإطناب**، والإيجاز عند البلاغيين أداة تأثير واستمالة في إنتاج شفوي معرض للتلاشي والنسيان، لأنَّ الرسول (ﷺ) في موضع تأكيد مسائل عقدية وتشريعية حاسمة في الحياة، وقد استطاع بألفاظ دقيقة أن يحسم المواقف ويقرر الأحكام، مثل: التنبيه إلى حرمة الدماء والأموال: (**أيُّها الناس، إنَّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا**)، والتحذير من الشيطان وغوايته: (**أيُّها الناس، إنَّ الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك ممَّا تَحقِرون من أعمالكم**)، لأنَّ هدفه ﷺ التوجه إلى المتلقين بأيسر السبل وأقرب المفاهيم لإيصال الرسالة. وأطنب في الحديث عن موضوع المرأة للتأكيد على خصوصية التعامل مع المرأة بهدف تجاوز المنظور الرجالي القاصر والفهم الجاهلي غير المرتبط بالزمان والمكان.

– **استعمال الصور البيانية** التي أضفت جمالا على الخطبة، مما يستميل ذوق مستمعيه مثل: "**إنَّما المؤمنون إخوة**"، وهو تشبيه بليغ بحذف أداة التشبيه ووجه الشبه، وقد شبه المؤمنين بالإخوة، واقترن ذلك التشبيه بأسلوب القصر، ونطقت به اسمية الجملة لتأكيد الأخوة الإيمانية الثابتة. والمجاز أبلغ في الكلام من الحقيقة وأفضلها حيث يتم فيها استعمال الألفاظ في غير ما وضع له في أصل اللغة، مثل (**إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض**). ومبرر تفضيله المجاز على الحقيقة هو أنه أحسن موقعا في القلوب والأسماع، وفي ذلك إدراك لأحوال المتلقين[1].

– **الاستئناس بالمحسنات البديعية** التي أضفت على النص جمالا وكانت أداة فاعلة في فهم المعنى وتعميقه، حيث كان لها دور حجاجي بهدف الإقناع والبلوغ بالأثر مبلغه الأبعد، ومنها المقابلة والطباق والجناس، مثل المقابلة بين الهدى والضلال، (**من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له**)، لما لها من أثر التغيير العقدي والأخلاقي للمتلقي، كما ورد السجع عفو الخاطر، لأن الرسول (ﷺ) نهى عن سجع الكهان: (**ألا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم**).

[1] ابن رشيق، العمدة، 1 / 266.

– **الابتعاد عن التصنُّع والتكلف والتخييل والغموض،** وهذا هو بعد التلقي في مراعاة المقام وموافقة مقتضى الحال لإيصال الوصية بالتوجه إلى المتلقين بأيسر السبل وأقرب المفاهيم لتحقيق المقصد الديني من خلال **الوعظ والإرشاد،** وهو غرض جديد ظهر بعد ذلك في الأدب الإسلامي الذي احتوته كل العصور الأدبية، وأن يعدَّه البعض ظاهرة غير أدبية، لكن هذه الخطبة أثبتت أنَّه سمة جمالية للنص الأدبي، وبإمكانه تحقيق الخصوصية الجمالية لنصوص أخرى[1].

– **توظيف التناص القرآني معجما واقتباسا وامتصاصا،** إذ اتَّضحت قوَّة نفوذه في بناء نص الخطبة ودلالته من خلال تعالُقه مع العناصر المكونة لنسيجه البلاغي ومقصده الديني المرتبط بتبليغ مبادئ الخطبة بإيراد المعاني القرآنية بألفاظها وتراكيبها الواردة في السور والآيات، لما في ذلك من طاقة تعبيرية وتشريعية لأنَّ الملفوظ القرآني له دور في الفهم والاستنباط للمتلقين "إذ يعتمد في تمييزه على ثقافة المتلقي وبعد معرفته وقدرته على الترجيح"[2]. و يعدُّ القرآن الكريم وفق المنظور الإسلامي المصدر الأول للمعرفة الإنسانية، وفي ذلك تحقيق للمقاصد الإيمانية للمتلقي بالتأثير والإقناع، وكان في أكثر المواضع يتخذ شكل الاقتباس بعدا امتصاصيا التزاما منه ﷺ بالسياق الإعجازي للنص القرآني، وقد تداخلت نصوص الخطبة مع سياقات ودلالات الآيات القرآنية، وكانت هي السجل والذخيرة في منظور التلقي، مثل نص: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) **مع الآية: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}**[3]. وكذا نص (أيُّها الناس، إنَّ النسيء زيادةٌ في الكفر، يُضل به الذين كفروا، يُحلّونه عامًا ويُحرّمونه عاما ليواطِئُوا عِدّة ما حرّم الله، فيحلُّوا ما حرم الله): مع الآية: **{إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ}**[4]. وكذلك نص: (وإنّ عِدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلَق السماواتِ والأرضَ، منها أربعةٌ حرُمٌ: ثلاثةٌ حرُمٍ متواليات، وواحدٌ فردٌ: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان) مع الآية: **{إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ}**[5]. وقدّم الاقتباس صورة التعالق النصي لتأكيد مطابقة دلالة النص النبوي

---

[1] نايف معروف، الأدب الإسلامي في عهد النبوة وخلافة الراشدين، ص 201 . 208.

[2] محمّد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري استراتيجية التناص، ط 2، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 1986، ص 131.

[3] الحجرات، الآية 13.

[4] التوبة، الآية 37.

[5] التوبة، الآية 36.

للدلالة القرآنية، وتحقيق التماثل القصدي بين النص القرآني والنص النبوي.

رابعا: مقصدية الخطبة وأفق التلقي:

تحقَّقت مقصدية الخطبة مع مقصدية التلقي لكن ليس من خلال المقصدية الجمالية فقط، وإنَّما من خلال ارتباطها بالمقاصد الدينية والإنسانية التي تضمَّنت الإنتاج المعرفي بالاستناد إلى النص القرآني بوصفه "محتوى الوعي والوجود الكوني وحركته وما يتمظهر به هذا الوجود من تشيُّؤ وتكوين ودلالات"[1]، كما تحقَّقت مقصدية المعنى الجمالي من خلال سمات الخطاب النبوي الذي قال فيه الجاحظ: "لم يسمع الناس لكلام قط أعمّ نفعًا، ولا أقصد لفظًا، ولا أعدل وزنًا، ولا أجمل مذهبًا، ولا أكرم مطلبًا، ولا أحسن موقعًا، ولا أسهل مخرجًا، ولا أفصح معنًى، ولا أبين في فحوى، من كلامه صلى الله عليه وسلم كثيرا"[2]. وتأتي أهمية أسلوبية البلاغة المنتجة للمعنى الجمالي الذي يلحق المعنى المقصدي من خلال العلاقة الوطيدة بين صياغة الكلام ونجاح عملية التواصل والتي لخصها الجاحظ أيضا بقوله: "إنَّ مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنَّما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغتَ الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان"[3]. فحقَّق بذلك البيان النبوي **مقصدية التبليغ في الخطبة:**

[1] أبو القاسم حاج حمد، المنهجية المعرفية في القرآن الكريم، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، د. تا، ص 121.

[2] البيان والتبيين، 2 / 17 . 18.

[3] المصدر نفسه، 1 / 76.

خامسا: الخطبة: نص مفتوح على أبعاد التلقي والقراءة

اتَّسمت الخطبة **بخاصية الشمولية**، فكانت خطابا شاملا للبشرية جمعاء، وهي تستظل بظلال الإسلام في كل زمان ومكان، مهما اختلفت الألسنة، ومهما تباينت الأجناس.. بل يجمعها الشعور الإيماني الشامل والتصور الإسلامي والمتوازن على المستوى (**العقدي، النفسي، الأخلاقي، الاجتماعي، الإنساني، الحضاري**)[1]. وكذلك **خاصية الانفتاح** من خلال بعد الخطبة الاستشرافي فما زال الرسول (ﷺ) من خلالها يعايش واقع اليوم، فيوصي بالبعد عن التناحر والتخاصم، وتحقيق أواصر التآخي والوئام. وبذلك امتلكت الخطبة خاصية النص المفتوح بامتلاكه بينة متجانسة، جعلته قابلا لتعدد دلالاته وتأويلاته، ومحتفظا في

[1] صابر عبد الدائم، الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق، ص 257.

الوقت ذاته بطابعه الفردي الذي منحه قيمته ومعناه[1]. ويمنح للقارئ عددا ممكنا من المرجعيات ومن المنظورات التي توسع من أدواته الإدراكية لتقديم سلسلة من القراءات المتغيرة باستمرار[2]، تكشف عن عالم مفتوح لاستمرارية عقيدة الإسلام على أنَّها منبع الحياة ومجرى القيم ومصب الرؤى والإشراقات على مدى الإنسانية. وقد كشف الرافعي عن إنسانية خطاب النَّبي (ﷺ) بتساؤله: "وأنا فلست أدري، أهذا هو النَّبي (ﷺ) يتكلم في الإنسانية وحقوقها بكلام بيّن صريح لا فلسفة فيه، أم هي الإنسانية تنطق على لسانه بهذا البيان العالي؟"[3].

واعتمد الرسول (ﷺ) على الخطابة لإيصال رسالته في قوم لم تكن الكتابة شائعة لديهم؛ وبالتالي فهو يقصدهم في مراكز تجمعهم، وهي من المنظور البلاغي لها خصوصية التلقي قبل القراءة لأنَّه خطاب إنساني شمولي، أعلن فيه أن هذا اللقاء لم يسبق له مثيل في تاريخ العرب، وقد يكون الأخير. ولهذا نبّه إلى الوعي والإدراك والفهم لما يقول ليبلّغوه لمن يأتي بعدهم، وهذه إحالة إلى المتلقي بما له من حمولة نفسية واجتماعية وفكرية محكومة بمعتقدات وطقوس وعادات من متلق معاصر إلى متلق مستقبلي لإعلانٍ واسع المدى بنهاية الجاهلية وامتداد الإسلام. ويمكن تحديد أنواع المتلقين من الخطبة:

– المتلقي الأول: الرسول ﷺ

تحمَّل الرسول (ﷺ) مسؤولية تلقي أسمى الرسالات وتبليغها من خلال بيان سام ولفظ مقدس، ومعان تدعو إلى التأمل والتفكر لتحقيق الاستيعاب العقلي والاحتواء العاطفي للمتلقي، وكان البعد الإعلامي والدعوي حول الموضوع المركزي وهو الإسلام، مرتكزا على الدلالة التبليغية المرتبطة بالرسول (ﷺ)، وهو متلق خاص لعلاقته بالله والوحي والسماء وما تمنحه تلك العلاقة من خصوصية التلقي. قال تعالى: **{وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرءَانَ مِن لَّدُن حَكِيمٍ عَلِيمٍ}**[4]. وهو بذلك يؤدي ما أنزله الله عليه مصداقا لقوله تعالى، **{وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ}** (النحل، الآية: 44). **{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}** (الأنبياء: 107). وقد عكست الخطبة مبادئ الإيمان والصدق والنبوة، وفي ذلك تحقيق لمقصدية التلقي (**الإيمان بالله ورسوله متلازمان**)، وهذه خصوصية المتلقي الأول (الرسول ﷺ) بأبعاده الغيبية والدينية، التي تتجاوز المنظور النقدي للتلقي.

– المتلقي الحاضر/ المعاصر للخطبة

---

[1] أميبرتو إيكو، الأثر المفتوح، ترجمة: عبد الرحمان بوعلي، ط 1، دمشق، دار الحوار، 2001، ص 40.

[2] عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة،ط 1، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2007، ص 56.

[3] الرافعي، وحي القلم، 3 / 7.

[4] النمل، الآية 6.

حملت الخطبة **للمتلقي الحاضر/ السامع** دلالات ومعاني الدعوة إلى الدين الجديد، بمخاطبة عقله وقلبه، فأدت إلى إقناعه العقلي والنفسي، وإفهامه **أحكام التشريع**، وأحدثت تأثيرا عليه باستمالة مشاعره **بإحكام أسلوبي**، ابتعد عن التكلف والتصنع، واتَّصف بالبيان والوضوح، وإعجابه بما ورد من **حِكم دينية ودنيوية**، اتّسمت بالترابط المنطقي وغزارة المعاني وكثافتها. وحقَّقت بذلك المقصد الجمالي والرسالي بما لها من سحر وقوة جذب فكرا وأسلوبا، فأحدثت الانجذاب والدهشة. وقد قام بشرح العقيدة وتبسيطها باعتماد شروح تؤكِّد على الطاعة أساسا للهُدى والخير والصلاح، وعلى ترك المعصية والتحذير من الضلال خشية الوقوع في المهالك. واتَّسمت الشروح بالأسلوب السهل الممتنع، والابتعاد عن الغموض والتعقيد والغريب للتأثير في المتلقي وإقناعه، كشرح أعراف الجاهلية: (**السدانة والسقاية، والعمد قود، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية**)، وشرح الأحكام الإسلامية (**مثل أحكام الميراث**). كما ضمّنها ﷺ عبارة استشرافية للغيب ومُؤثرة في المتلقي: "**لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا**". فأيّ استماع لخطاب قد يكون الأخير من إنسان أحبّه الناس وينبئ بمستقبل يكشف عن استمرار محبته والميل إلى اعتناق مبادئ دعوته.

– المتلقي الغائب/ المستقبلي للخطبة

كان التبليغ للمتلقي الحاضر والمتلقي الغائب (**المتلقي المسلم وغير المسلم**)، (**فليُبلّغ الشاهدُ الغائب**)، **وهو المتلقي المستقبلي** الممتد مع الزمان، والذي يحيل إلى **القارئ الضمني**، وهو قارئ موجود ودائم في النص زمانيا ومكانيا، ويظل متجذرا في صميم الخطاب[1]. وهنا يتحول فعل التلقي إلى القراءة؛ حيث يتنوع القراء وتتعدّد قراءاتهم، وفيهم **القارئ العالم والخبير والمثالي، وهم (الشُّراح، المفسرون، المشرعون، اللغويون، البلاغيون، النقاد، الفلاسفة، المفكرون، علماء الطبيعة والحساب والفلك)**. وهنا يظهر القارئ / المتلقي / الغائب الذي يؤكِّد على أنَّ لنص الخطبة موقفا حواريا يتجه من متلقٍّ مُخاطَب إلى قارئ غير محدد، فبعد أن يكون قرينا بسند مادي، يصير أكثر امتلاء بالروح، بمعنى أنَّه يتحرر من ضيق موقف المشافهة وقد انفتح على عدد لا حصر له من القراء، ممَّا يُمكّن انفتاح النص "على قراءات متعددة هي النظير الجدلي للاستقلال الدلالي للنص"[2]. وهذا التصور للمتلقي المستقبلي لا يلغي المسافة الزمانية بين زمن نص الخطبة وزمن تلقيه، لأنَّه هذه المسافة هي التي تعمل على تحقيق المعنى وإنتاجه.[3] وهذه المسافة من

---

[1] فولفغانغ أيزر، فعل القراءة، ترجمة حميد الحمداني، الرباط، مكتبة المناهل، 1987، ص 30.

[2] بول ريكور، نظرية التأويل: الخطاب وفائض المعنى، ترجمة سعيد الغانمي، الدار البيضاء (المغرب)، المركز الثقافي العربي، 2003، ص 64.

[3] هانز جورج جادامير، الحقيقة والمنهج: الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية، ترجمة حسن ناظم، وعلي حاكم صالح، ط 1، طرابلس، دار أويا، 2007، ص 417.

منظور التلقي هي المسافة الزمنية التي تبرز أمام الحمولات والمعايير التي يحملها النص، وتكمن في درجة التقارب والتباعد، أو في محاولة الاختزال، وتبرز تلك المسافة من خلال ردود فعل المتلقي تجاه النص، وهي ثلاث استجابات: (الرضا، الخيبة، التغيير)[1]. فالرضا هو تلق يصاحبه شعور بالارتياح، سببه تقبل ذوقي وقيمي. والخيبة هي حالة رفض وعدم قبول قد تظل لفترة زمنية مرفوضة أو يحدث التغيير وهو محاولة تقبل المتلقي للنص حيث يصغي ويأنس له ويرتاح لمعاييره، وهذا ما يؤدي إلى تغيير أفق التلقي بعد كسر أفق التوقع البلاغي، وذلك بإحداث تغيير في الموقف الفكري للمتلقي ووضعه الراهن.

فالأفق التاريخي الماضوي لنص الخطبة لا يرتسم لنا كما يرى أصحاب نظرية القراءة والتلقي عبر إعادة البناء، هو حقا أفق قائم بالفعل، وعلى المتلقي أن يفهمه ضمن نطاق الأفق الذي يحتويه[2]، لأنَّ النص النبوي بأفقه الحاضر يبقى في تشكل دائم ومتواصل ليحقق أفقا مستقبليا آخر، وبذلك تنصهر الافاق، إذا يتحد "القديم والجديد في شيء ذي قيمة حية"[3]. فزمن الخطبة الأصلي بمدلولها القصدي يتكامل فيها الماضي والحاضر والمستقبل، وهذا يدل على أهمية المتلقي وتعدد قراءاته في إعادة إحياء واستعادة معاني النص، مثلما هو موضح في هذا المخطط:

[1] ناظم عودة خضر، الأصول المعرفية لنظرية التلقي، عَمآن، دار الشروق، 1997، ص 115. حميد سمير، النص وتفاعل المتلقي في الخطاب الأدبي عند المعرّي، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، 2005، ص 31. 32.

[2] ناظم عودة خضر، المرجع السابق، ص 101. 102.

[3] هانز جورج جادامير، المرجع السابق، ص 417.

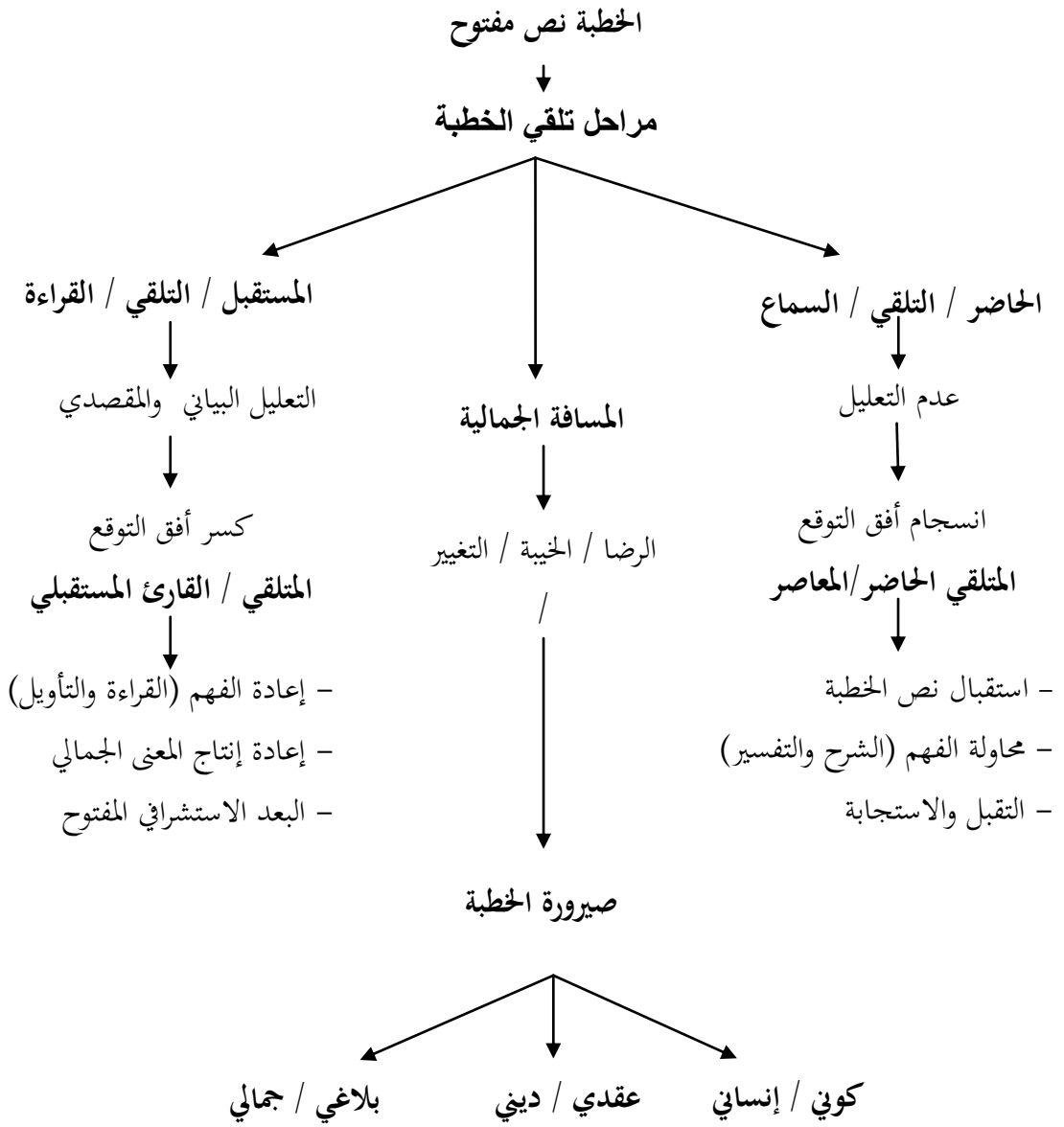

خاتمة:

استجابت الخطبة لشروط التلقي الذي حظي باهتمام كبير في تراثنا العربي الإسلامي، إلاّ أنَّ معالمه المفاهيمية والمنهجية تبلورت في نظرية القراءة والتلقي، وتطورت في النقد المعاصر، فأمكن تقديم استراتيجيات ومحدِّدات للتلقي والقراءة من خلال محتواها وأسلوبها ومقاصدها على مستويات مفاهيمية ومصطلحية مقتبسة من النظرية: (**الطبع، الذوق، الفهم، الإدراك، التأمل، التأثير، الإقناع، إثبات الحجة، الشرح، التأويل، المقصدية، الذخيرة، السجل، أفق التوقع، المسافة الجمالية، إنتاج المعنى الجمالي**). كما أنَّ نوع النص / الخطبة هو من طبيعة التلقي، فمنه السماعي ومنه القرائي. وقد تحدَّدت مراحل التلقي من الرؤية والسماع، والفهم والتقبل، إلى القراءة والتفسير والتأويل، ومن ثم تحدَّدت أنواع المتلقين باختلاف المستوى الديني والاجتماعي والثقافي، وتعدّد قراءاتهم. وكذلك تتبُّع ردود أفعال التلقي التي تتجاوز الزمان والمكان،

لأنَّ الخطبة أدَّت إلى التغيير الذوقي والقيمي بعد حصول الرضا والقبول الذي تجسد بآليات بلاغية وأسلوبية عملت على استمالة المتلقي والوصول بذلك إلى تحقيق المقصد الديني والجمالي.

وكان للخطبة نسقها وبنيتها ودلالتها، ممَّا جعلها تكتسب تفرُّدا جماليا وتصورا قائما على المعاني المفتوحة والرؤى الجديدة من منظور نظرية القراءة والتلقي، إلاَّ أنَّ النص القرآني ومعه النص النبوي يتفوق بخصوصيته المقدسة عن أي خطاب آخر، ويتجاوز كل تأصيل نظري أو تطبيق منهجي لأنَّه قدَّم أنموذجا خاصا لفهم التلقي، يرتكز على ثنائية المقصدية الجمالية والمقصدية الرسالية المنفتحة على مراعاة السنن الإلهية والصيرورة الإنسانية، والغائبة في نظرية التلقي والقراءة المنبنية على فلسفة ما بعد الحداثة القائمة على النظر في ثنائية الثابت والمتغير، والذي قد يتعارض مع الخصوصية الحضارية الإسلامية.

المصادر ومراجع:

- القرآن الكريم.

الكتب:

1. أحمد مُحَمَّد الحوفي، فن الخطابة، ط 5، القاهرة، دار نهضة مصر، 2007.
2. أميبرتو إيكو، الأثر المفتوح، ترجمة: عبد الرحمان بوعلي، ط 1، دمشق، دار الحوار، 2001.
3. بشرى موسى صالح، نظرية التلقي أصول وتطبيقات، ط 1، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 2001.
4. بول ريكور، نظرية التأويل: الخطاب وفائض المعنى، ترجمة سعيد الغانمي، الدار البيضاء (المغرب)، المركز الثقافي العربي، 2003.
5. الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ط 5، تونس، دار سحنون للنشر والتوزيع، 1411 هـ / 1990 م، ج 2.
6. حميد سمير، النص وتفاعل المتلقي في الخطاب الأدبي عند المعرّي، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، 2005.
7. ابن رشيق، العمدة، تحقيق مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد، ط 1، بيروت، دار الجيل، د. تا، ج 1.
8. روبرت هولب، نظرية التلقي، مقدمة نقدية، ترجمة عز الدين إسماعيل، القاهرة، المكتبة الأكاديمية، 2000.
9. سالم المعوش، القواعد المعرفية الإسلامية في أدب صدر الإسلام، ط 1، بيروت، دار النهضة العربية، 1422 هـ / 2001.
10. صابر عبد الدائم، الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق، ط 2، القاهرة، دار الشروق، 1422 هـ / 2002.

11. عبد السلام المسدي، الأسلوب والأسلوبية، تونس، الدار العربية للكتاب، 1977.
12. عبد العاطي مُحَمَّد شلبي، وعبد العاطي عبد المقصود، الخطابة الإسلامية، الاسكندرية (مصر)، المكتب الجامعي الحديث، 2006.
13. عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة،ط 1، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2007.
14. علي محفوظ، فن الخطابة وإعداد الخطيب، القاهرة، دار الاعتصام، د. تا.
15. فاروق حمادة، الوصية النبوية للأمة الإسلامية في حجة الوداع، ط 1، دمشق، دار القلم، 2001.
16. فولفغانغ أيزر، فعل القراءة، ترجمة حميد الحمداني، الرباط، مكتبة المناهل، 1987.
17. أبو القاسم حاج حمد، المنهجية المعرفية في القرآن الكريم، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، د. ت.
18. ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، شرح السيد أحمد صقر، ط 3، القاهرة، المكتبة العلمية، 1401 هـ / 1985
19. مُحَمَّد إقبال عروي، مفاهيم هيكلية في نظرية التلقي، مجلة عالم الفكر، الكويت، ع 5، مج 37، يناير . مارس 2009.
20. مُحَمَّد السيد شيخون، أسرار التكرار في لغة القرآن، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، 1403 هـ / 1983 م.
21. مُحَمَّد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري استراتيجية التناص، ط 2، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 1986.
22. محمود زغلول سلام، أثر القرآن في تطور النقد العربي، القاهرة، دار المعارف، 1968.
23. مصطفى الشكعة، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، القاهرة، المكتبة الأنجلو مصرية، 1968.
24. مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، بيروت، دار الكتاب العربي، 142 هـ / 2003 م، ج 3.
25. ناظم عودة خضر، الأصول المعرفية لنظرية التلقي، عَمان، دار الشروق، 1997.
26. نايف معروف، الأدب الإسلامي في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ط 1، بيروت، دار النفائس، 1410 هـ / 1990 م.
27. هانز جورج جادامير، الحقيقة والمنهج: الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية، ترجمة حسن ناظم، وعلي حاكم صالح، ط 1، طرابلس، دار أويا، 2007.
28. هانز روبرت ياوس، جمالية التلقي من أجل تأويل جديد للنص الأدبي، ترجمة رشيد بنحدو، القاهرة، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، 2004.
29. ابن هشام، السيرة، تحقيق السقا الأبياري شلبي، دمشق، ط. البابي الحلبي، 1375 هـ / 1955 م، ج4.